« لذعات بريئة ... » (٢)

ليس هذا بعشك فادرجي

لم نشك ونحن نكتب هذه السلسلة المتتابعة في نقد شعرائنا اننا سنثير ضجة كبيرة في وسطنا الادبي يرتاح لها فريق من المتنورين الذين يدركون فائدة النقد ، ويغضب لها آخرون ارتضوا لانفسهم الجمود واقتنعوا بخطتهم القديمة المرسومة واكتفوا بالوقوف والركب يسير ، وما أكثر نصير هذا الفريق وما أوفر أشياعهم عندنا يدافعون عنهم بالباطل وينصرونهم باللغو والبهتان ويكتمون الحق وهم يعلمون.

ونحن اذا كتبنا فما أردنا الا الاصلاح ما استطعنا وانصاف الحق ، وليس من طبعنا التنقيص من قدر أحد او تجريح فرد من الافراد وانما هي الغيرة الادبية ما تزال تدفعنا الى الدفاع عن كرامة الشعر واستحثاث شعرائنا الى النهوض به من الحضيض الاسفل الذي شاء فريق من النظامين أن يخلد فيه ويستمر في دركه ، وغاب عنهم اننا نعيش في عصر تفتحت فيه الاعين وتنبهت فيه الافكار وتهيأت الاذهان لتمييز الصحيح من المعتل والصالح من الفاسد ، وليس من الحق أن نسكت طويلا عن الفوضى السائدة في حياتنا الادبية ، ولا من الصواب أن نهمل النقد العادل الذي لا تنكر فائدته ولا نرتاب انه سيخلصنا من الفوضى في الادب ، ويقضي على الاوشاب ويهدينا الصراط السوي الذي لا عوج فيه ولا نتوء .

ومن الاسف أن يحمل بعض المتنطعين والجامدين كلامنا على سوء القصد ولا تعجبهم الصراحة ولا يرضيهم الا الجمود على ما ألفوا من عهد بعيد . وهل يفسد الماء الا الركود ، والعقول غير الجمود ، ورغم هذا فلنا من سعة الصدر ما يدعونا الى الترحيب بكل رد خالص للحق منزه عن الغرض وقد قرأنا بكل اطمئنان ما كتبه (صديق) و (ابن عمار) فلم يزعجنا ما كتبه الاول ولم نهتبل بالرد عليه لولا ما ندّ به قلمه من السعايات والمغالطة وقلب الحقائق. ويبدو لنا من اسلوبه أنه غريب طوحت به الاقدار الى حيث شاءت ان تلقي به ، ولعبت به الايدي وحركته الى أن يكتب ما كتب بعد تلقين ، وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم .

وقد حملوه أن يقول ان المغرب لا يطيق ولا يحتمل الانتقاد فهو في نظره كشاب ظريف لطيف !! . وهذا منتهى ما تصل اليه المغالطة والتضليل فالنقد شائع في كل امة وفائدته ظاهرة ونتائجه في اصلاح ما اختل واعوج وتنوير البصائر وتثقيف النفوس أمر عند الناس معلوم . وهل الناقد الا كالصائغ يميز اللؤلؤ من الحجر والالماس من الزجاج والذهب من النحاس ؟

وما موجب الانتقام من الشباب ونعته باوصاف يبرأ منها براءة الصدق من (صديق) وخلق ما ليس بموجود في جو الصفاء من جعل طائفتين منفصلتين متباينتين في الاتجاه والتفكير ، طائفة ينسب اليها النقد واخرى عكسها . أليس سوى حب التفرقة واضرام نار الموجدة التي تدعي أنك ضدها ؟

و (صديق) سامحه الله يجهل قول العرب : من ألف فقد استهدف . ويجهل ان الشاعر متى أنشأ قصيدة ونشرها بين الناس أصبحت ملكاً للادب وفي متناول كل كاتب نقدها وتزييفها . وغاب عنه أن النقد لم يوخذ عن الاجانب فهو معروف في التاريخ العربي والمؤلفات فيه مشهورة شائعة بين الادباء . والنقاد نعرف منهم الكثير ، ولعل الذاكرة لا تزال تعيهم . ونحن ذاكرون لـ(صديق) بعضهم لعل غباوته تزول وجهله يحول :

فامرؤ القيس كان يوماً نازلاً في بني طي فجاءه علقمة الشاعر فتذاكرا الشعر فقال الاول أنا أشعر منك وأنكر الاخر عليه وأدى بهما الحال الى التحاكم امام أم جندب فنقدت هذه شعر امرئ القيس وكان زوجها وفضلت شعر علقمة عليه مما أفضى الى طلاقها فتزوجها علقمة وسمي اذ ذاك علقمة الفحل وتجد صورة ذلك مفصلة في كتب الادب . وعكاظ وهو سوق من اسواق العرب ألم يكن ميدانا للتفاخر والتنافس والانتقاد وناقدهم النابغة الذبياني الشاعر مشهور . وقضية الخنساء مع حسان بن ثابت الانصاري هي كافية للاستدلال على قيمة النقد قديماً وكذلك موقف المتنبي مع خصومه وأولهم أبو فراس الحمداني في قصيدته المشهورة : واحر قلباه ممن قلبه شبم . وحيرة أبي تمام حين امتدح المعتصم بقصيدته السينية واعتراض الفيلسوف الكندي عليه وانتقاده اياه ولو أن المجلة تتسع لاكثر من هذا لزدنا (صديق) مما تضطره الحاجة لمعرفته ولكن للمجلة ابحاثا هي افيد للقارئ من الاخذ والرد . وحبذا لو بين في رده عيوب مقالنا الاول لنستفيد من علمه كما استفدنا في العام المنسلخ من ابحاثه

في « الزعبول » أو كرموس النصارى ومقالاته في طوابع البريد البالية ، المختصة به والمقتصرة عليه !

أما التعريض والتحريش وبث السعايات فليفرخ روعك فما بذلك اهتبلت ولا بردك اكترثت . فدع الرد وعدّ عن النقد فليس هذا بعشك فادرجي .

أما أخي ابن عمار فلعله لم يطالع المقال كله والا لعلم أن النقد سيشمل الصغير والكبير من الشعراء ، وما تعمدت اختيار الشريف ابن زيدان والفقيه الشرفي عن قصد . وليس الذنب ذنبي فهما اللذان شاءا ولجّ بهما الحرص على أن يكونا من الشعراء فكان ما كان وامر الله قدر مقدور .

***

شاعرنا المطبوع

كان الواجب يقضي علينا أن نبدأ بنقد شعر السيد عبد الله القباج اذ هو كما يقولون شاعر المغرب وبلبله الصداح والشاعر المطبوع الذي لا يوجد له قرين في النظم والارتجال ، تلك هي الالقاب التي يتمتع شاعرنا بها اليوم وقبل اليوم ويكنى بها في كل ناد ومحفل وتحلى بها قصائده في كل مناسبة وحين وامام كل مائدة وخوان، وهو بذلك جدير أن يكون في طليعة من يتناولهم النقد لمكانته بين الهاتفين بشعره والمعجبين بنظمه ، ولكننا لم نراع في النقد ترتيباً ولم نحفل بدولة الالقاب لاني لا أومن بها وعندي ان ليس في ذيوع الاسماء واشتهار النعوت احيانا ما يدل على عظمة المنعوت ، ولا تهمنا الالقاب مهما كثرت ولا ننظر الى الشهرة كشيء مقدس يستحق حرق البخور والتهليل والتكبير وانما نعمد الى أقوال الشاعر فنضعها في الميزان ونعرضها على محك النقد لنرى هل تتناسب مع تلك الشهرة وتستحق الاعجاب وتعد من الادب أم هي زيف وبهتان ولا أدل على الانسان من آثاره وما يعرب عن المرء مثل فلتات لسانه .

وفي الحق أن الشاعر القباج له آيات في الشعر سابقة يوم كان قريب العهد بالديار الحجازية التي قضى فيها شطراً من حياته ملازماً شعراءها الفحول كالسيد احمد سحرة والسيد عثمان الراضي والسيد أحمد بافقيه واليهم يرجع جانب من الفضل كبير في ظهور شاعريته الفياضة وتألق نجمه اذ ذاك فأجاد كثيراً في مطروقاته المناسبة لظروفه وكون في المغرب نوع حركة أدبية لا بأس بها وتعاون معه على تنشيطها وتغذيتها ثلة من ادباء هذه الجهة ، ولازلنا نذكر تلك المجالس الحافلة والمساجلات الشعرية التي كان يشارك فيها فقيد العلم والادب مولاي احمد البلغيثي والاستاذ الكبير المرحوم أبو جندار وآخرون لا زالوا في قيد الحياة أمد الله في أعمارهم وكان منزل أبي جندار كنادادبي يجمع كل اديب ، ويلتقي فيه كل مثقف اريب ، ودام زمنا مهبط القريض وموحى الشعر الرصين ، ومن هناك كنا نتلقى بدائع في الشعر وآيات في النظم مناسبة لذلك الوقت ومتفقة مع البيئة التي نعيش فيها ومصطبغة بلون المغرب الجميل ، وكان شاعرنا المتحدث عنه احد المجيدين في ميدان الشعر وكانت اشعاره تنال حظاً من الاعجاب وتكتب وتحفظ كشيء طلي وطريف ، ولكن حدث بموت احدهم واعتزال آخرين ما صرف الباقين الى أشغالهم والاهتمام بشؤنهم الخاصة فكانت تلك العصبة آخر من ائتلف وذلك النادي هو الاول والاخر .

ونحن اذا كنا نعرف أن الانسان يتطور في حياته أطواراً متميزة لا بد منها اجراها الخالق المبدع على خلقه فمن حداثة الى يفع ومن شباب الى كهولة ومن هناك يشرف على الهرم ويبلغ من الحياة الحد الفاصل فكذلك الشعر عندي تابع لحياة الانسان وأطواره يصدر ضعيفاً ثم يقوى ثم يعود الى ضعفه الاول فيظهر فيه أثر السخف والركاكة وضعف التعبير وتنصرف العناية الى القشور دون اللباب والعرض دون الجوهر ، وبهذا القياس نقيس شعر القباج فله فضل الاجادة في القديم لا ننكرها أما الآن فنحن نصارحه صراحة لامحاباة فيها ولا تريبم أن شعره قد هرم كما يهرم الشيخ الكبير وضعف انتاجه وان كان لا يسلم هو بهذا ولا يعترف به انصاره والهاتفون له وسبحان الباقي الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل ! وسنورد للقارئ امثلة تصلح كشاهد وبرهان ، واقر بها عندي وأنا اتصفح مسامرته في الشعر والشعراء الابيات العشرة التي ختم بها المحاضرة واليكها :

جزى المولى أمير المومنينا ☆ على احسانه للمسلمينا
وأيده وأبده وأبقى ☆ جنابه رحمة للعالمينا
وبارك فيه لي ولكم دواماً ☆ وبارك في عياله والبنينا
جزى المولى فرنسة عن حمانا ☆ بافضل ما يجازى المصلحينا

جزى المولى المقيم العام عنا ✡ وكان على الصلاح له معينا
جزاك الله يا حجوي خيراً ✡ عن العلماء والمتعلمينا
وزادك بسطة في كل فن ✡ وعلم يا ضياء المبصرينا
وأوصل للمقاصد والاماني ✡ جميع الفاضلينا الحاضرينا
وأسعدهم ووفقنا جميعاً ✡ الى منهاج خير المرسلينا
عليه وعلى آله أزكى صلاة ✡ تضيء بها وجوه مسامرينا (1)

ألست تراها كدعوات قراء الاضرحة والقبور وتوسلات المتسولين التي نسمعها صباح مساء بين الشوارع وفي كل مزدحم وسوق ؟ ويمكنك أن تلخص معناها في جملة صغيرة بدون هذا التطويل الممل وبغير هاته القوافي العشر وهي كما أقول أنا وأنت وجميع الناس في موقف التشكر : جزيتم خيرا ، وقد كان في وسعه أن يقول هكذا ويشفق على نفسه وعلى فكره من اعتصاره ليخرج مثل هذه الابيات لو أراد ! ولكنه اختار أن تكون الخاتمة شعراً وهو ما كان منه منتظراً والشعر ترجمان العاطفة فأخفق وأتى بشعر يضحك المحزون !

وقصيدته في المولد وما عهده ببعيد لا تقل عن هذه سخافة ولو أردنا عرضها وقربنا لك معانيها لظهر لك العجز البادي في أجلى مظاهره والكلفة المتناهية في كل بيت من أبياتها ، ولو سألت عجوزاً من النساء لأعطتك من أوصاف الذكرى أحسن وأبين وأوفى بما تمسّ الحاجة اليه من هذا الموضوع ، ومن أعجب أمر هذا الشاعر الكبير أنك تجد معاني قصيدته في المولد هي المتجلية في كل قصائده السالفة في خصوص هذا الغرض فارجع ان شئت الى مجموع الامداح السلطانية المطبوع ليتبين لك صدق قولنا وطالما نصحنا الى شعرائنا أن يتتبعوا الشعر الجديد ويطالعوا الدواوين الشعرية الجديدة كديوان حافظ وشوقي والرصافي وأبي شادي والعقاد وأمثالهم لعلها تؤثر في عقلياتهم وتكون لهم انتاجاً وأفكاراً ان لم تكن لهم قدرة على الابداع والابتكار ، ولأن يقلدوا النابغ المجيد خير من أن تبقى أفكارهم في دائرة محدودة وحيز ضيق لا يسمح بشيء ، ولو أن شاعرنا صرف جانباً من وقته في المطالعة والاستفادة وتتبع النهضة الشرقية ويقايس فكره على بنات أفكار معاصريه ويحذو حذوهم لانتفع به الادب وربما أمكن أن يفاخر به المغرب ، ولكنه أقتنع بخطته التي رسمها لنفسه واكتفى بالنعوت التي يتمتع بها فوقع في المزالق وعيوب اللفظ والاسفاف في المعنى كما يظهر جلياً في الابيات الاخيرة من قصيدة يهنئ بها أحد سراة المغرب ويصفه هكذا :

خبيراً بصيراً بالزمان وأهله
أديباً أريباً مغرماً ببناتي !!
فدونكها في ظرف يوم وليلة
في شهر ربيع والزمان مواتي
فجاءت بحمد الله عصماء بضة
تبز رداح الحي والغادات
ولكنها من دون حلي لأنها
على عجل تدعو الى العشرات
وقد كنت لما عدت قبل مسافراً
بفاس ومكناس مع الفلذات

أراد أن يقول في البيت الاول بنات أفكاره فضاق البيت ولم يتسع للفظ فبقيت البنات وحدها متعلّقة بمحذوف على طريق الاكتفاء فاختل المعنى وتكونت في الذهن صورة بشعة سافلة دلت على ذعارة تثلم العرض وتخدش وجه المروءة فياللخجل ! ويالله العار ! وأين هذا من الشواهد التي كنا نحفظها في دروس التلخيص وكتب البلاغة في هذا الباب ؟ وأين هو من قول أبي نواس :

أسقني صرفاً من الرا ✡ ح تحت الهم حتا
ودع العذال فيها ✡ يضربون الماء حتى !

وهذه العيوب كثيرة في شعره ليس لها حصر ولا عدّ فكم أوقعته قوافيه في أحط دركات الاسفاف وذهبت بمحاسن شعره وهو لا يريد أن ينقح قصائده خوف أن تقصر ولا تبقى لها ميزة التطويل وتعدد القوافي ، ولا يزال عالقاً بالذهن بعض قواف اتت في عرض ابيات لا أدري هل هي مقصودة منه أم جره اليها جفاف القافية كقوله : ودمتم في رشوق! وقوله : ودونكم سلهامه ! ومنها :

كانما يوسف ما بينهم قمر
حفت بها هالة فيها قناديل
فليهنك الختم وليهن الالى حضروا
ليل الختام ومن في الختم قد صيلوا

(1) وقع له في الشطر الاول من هذا البيت اختلال في الوزن تركناه كما هو !

لو أنها نظمت كالدر واتخذت
في الجيد دان لها المرجان واللولوا

كل هذه القوافي يمجها الذوق ويعافها الطبع وقد قصد في قافية البيت الثاني قد وصلوا بالبناء للمجهول وفي الاخير تسهيل اللؤلؤ وفي تسهيله ثقل شديد ينفر من الشعر وقائله، ولا نغفل بهذه المناسبة عن ذلك البيت المشهور الذي جادت به قريحة شاعرنا اثناء قصيدة طويلة وما انفك يردده الناس كشاهد على شاعرية لسان المغرب وأديبه وحسامه وقضيبه بحر القريض المتلاطم الامواج، عبد الله القباج، كما يصف نفسه بخطه المحفوظ عندي وها هو البيت بحروفه ومعناه:

ما كان مولانا الامام براغب ☆ عنا ونحن كما علمت كلابه

فليتصور القارئ شاعراً قيل انه شاعر أمة يحاول نظم قصيدة في غرض مدح صاحب الجلالة والعرش ويهيئ لها سلسلة معاني مختارة ومن ضمنها أن يقول نحن كما علمت كلاب.

رعية مخلصة وشعب كريم كان له في الغابر مجد باذخ وعز راسخ وعراقة في الحضارة موروثة يسبغ عليها حلة الكلبية وينعتها بما تتقزز منه النفوس، وربما يأتي وقت نقرأ فيه لهذا الشاعر قصائد لا بيتاً واحداً بمثل هذا المعنى أو أحط ولا يتحرج من وصف المغرب بامة الحمير والبغال والقطط والسلاحف والحشرات، وما يدريك أنها ستكون في نظره استقبالا حجارة أو حديداً.

أما طائفة فقد ذهبت تعلل قوله أنه يشير بطرف خفي الى امة كامة المغرب لم ينفع فيها تقريع، ولا تنبهها الكوارث من رقدتها فلا هي للموت ولا للحياة ولا ارادت أن تشعر بمكانها وتهتم بشئونها ووجودها فوصفها أدق الوصف، وأصاب حيث رمي بذلك السهم لعلها تفيق، وطائفة لا تزال تحمل كلام شاعرنا محمل الدعابة في كل ما يصدر عنه بمثل هذا المعنى وسامح الله الشاعر فله من الحسنات، ما يستر هذه الهفوات، وتشفع له في مثل هذه الهنات. ونحن ملزمون أن نمر كراماً وننوه بما كان له من فضل على الادب المغربي ونذكر آياته القديمة التي كان يوحي اليه بها شعوره الصادق وطبعه الحساس.

ابن عباد

— ولنا هاته المرة ايضاً ملاحظات. وأولا نطلب من جديد من (ابن عباد) أن يحصر نقده في انتاج الكتاب ويترك كلياً كل ما له علاقة بالشخصيات ثم نلاحظ في شأن ما كتب عن (صديق)

بين الدين والالحاد

— تتمة —

لاجرم أنه منذ تكون البشر وهو مومن بالله ايمانا فطرياً، مسوقاً الى ذلك بشعوره الكامن واحساساته الباطنية وبتداول القرون والاجيال تولدت الشكوك في المعتقدات وكثر الفساد على وجه البسيطة، فأرسل الله الانبياء ليبينوا للبشر طريق الهدى والصلاح، فنزلت الاديان السماوية، كل دين منها خاص بقوم دون آخرين مناسب لظروفهم الاجتماعية والاخلاقية ممتد الى أجل، الى أن انزل الدين الاسلامي فأنقذ النوع الانساني من الوحشية والهمجية، وهو الدين الوحيد الذي نزل لسائر البشر للمميزات التي خص بها ولاحتوائه على عناصر الاصلاح والرقي والثقافة والعرفان، فاذا بحثنا اصول الاسلام في حدوده الطبيعية — بغض الطرف عما زيد فيه من البدع — نجد تعاليمه العامة هي التي تتطلبها طبيعة الكون لسائر الجماعات ولسائر الظروف لاخصوصية لفيئة دون اخرى.

فالاسلام بث في النفوس الاعتماد على النفس والعمل للرقي والحضارة والعمران والمساواة والعدل، فملك بذلك افريقيا وجل

أنه لا معنى للاشارة الى أصله وكلنا اخوان لا يفرّق بيننا شيء كما أنه من عدم الانصاف اتهامه بالعمل للغير وانما الرجل اديب عربي كتب عن نية حسنة لا زائد ولا ناقص، واما (الشاعر المطبوع) فقد ذكر (ابن عباد) بادئ بدء حسناته، وهذا شيء جديد في طريقة ابن عباد يشكر عليها اذ انه في مقاله الاول كان اقتصر على النقد خلافاً لما يجب في هذا الموضوع، وكل ما نرد به على مساعدنا النبيل أن الشاعر المطبوع قد قام بكل ما يناسب عصره وتسمح به الظروف فهو لذلك جدير بكل اجلال واعتراف ونتمنى ان يقوم الجيل الحاضر بكل ما يناسب هذا العصر، وسيأتي بعد ذلك ان شاء الله من يقول في ابن عباد واصحابه ما يقولونه في الشاعر المطبوع، وهذا معنى الزقي.